١ الشكوى إلى الله والرجاء فيه: مفتاح الفرج

من الشكوى إلى الرجاء:

في سورة يوسف، ننتقل من شكوى يعقوب لله إلى رجائه وتفاؤله. الشكوى الصادقة لله تبدد اليأس وتفتح أبواب الأمل، وهي سر من أسرار العبودية التي يدركها من ذاق حلاوتها.

علامات قرب الفرج:

عندما يشتد الألم ويفهم العبد رسالة الابتلاء ويستجيب لله، يظهر منه الخير ويرفع يديه ضارعًا. هذا ما حدث لإبراهيم وإسماعيل، فبمجرد التسليم جاء الفرج: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. إلهام الله للعبد بحسن الشكوى علامة على قرب الاستجابة.

وصية يعقوب لأبنائه: "يا بَنِيّ اذهبوا فتحسسوا":

بعد سنوات من الصمت، أمر يعقوب أبناءه بالبحث عن يوسف وأخيه، مستشعراً الفرج. نبرته تغيرت إلى الحنان بكلمة "يا بَنِيّ"، بعد أن لمس تغيراً في قلوبهم.

"ولا تيأسوا من روح الله": واجب الإيمان:

وصية عظيمة بعدم اليأس من رحمة الله وفرجه، فالأمل في الله عبادة قلبية وركن من أركان الإيمان. اليأس من رحمة الله من أكبر الكبائر وعلامة الجهل بالله، كما قال النبي ﷺ: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله."

الرجاء لا ينفع دون عمل:

الرجاء في الله واجب، لكنه لا يستقيم دون بذل الأسباب والعمل الصالح والتقوى والطاعة. يجب أن نقابل رجاءنا بالنية والعمل، وإلا كنا نلوم أنفسنا.

٢ ذل المعصية وعزة الطاعة: حال إخوة يوسف

ذل إخوة يوسف وانكسارهم:

دخل إخوة يوسف عليه وهم في قمة الذل والانكسار، بسبب حال أبيهم، تفريطهم، فقدان أخيهم، المجاعة، فقرهم، وفقدان بصر أبيهم. اجتمعت عليهم المصائب نتيجة المعصية، فـ "من تأمل ذل إخوة يوسف، تيقن من شؤم المعصية."

استجداء العفو: "يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر":

لقد أعز الله يوسف وأذلهم أمامه، فاستجدوه قائلين: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾. الأيدي التي ألقت يوسف في الجب، هي نفسها التي تمتد إليه اليوم تطلب الصدقة. هذا يؤكد أن الله لا يضيع حقوق المظلومين.

الفائدة العظيمة: رحمة الخالق بالعبد:

إذا رق قلب يوسف – وهو بشر – لإخوته وتأثر بكلماتهم، فكيف برب العالمين إن وقف عبده بين يديه متضرعًا، خاشعًا، مُظهرًا فقره وضعفه؟ ارفع يديك لله وقل: "يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر"، واطلب منه الجود والكرم.

٣ يوسف عليه السلام: قمة العفو والحكمة والتواضع

العتاب الراقي: "هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه":

يوسف عليه السلام عاتب إخوته بأرقى الأساليب، لا لوم ولا توبيخ، بل تلميح لطيف لجهلهم بقدر الله وقدر أنفسهم، وهذا هو الجهل الحقيقي في كل معصية.

إيثار التوبة على الانتقام:

آثر يوسف توبة إخوته على الانتقام لنفسه، وساعدهم على العودة إلى الله، فالكريم لا يكثر العتاب ولا يرهق الناس بذلهم.

تحقق الوعد الإلهي: "أنا يوسف":

تحقق وعد الله الذي أوحاه ليوسف في الجب: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أعلن يوسف عن نفسه بتواضع نادر: "أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ...".

التواضع ونسبة الفضل لله:

لم ينسب يوسف الفضل لنفسه، بل قال: "قد منّ الله علينا"، ونسي الإساءة وتجاوز عن الذنب. هذا هو خلق من استغنى بالله، حيث تهون عليه الدنيا ويسهل عليه العفو.

قاعدة التقوى والصبر: "إنه من يتق ويصبر":

يوسف لم ينسب الفضل لنفسه، بل قدمه في صورة قاعدة ربانية شاملة: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ". التقوى في الرخاء والصبر عند الشدائد هما جناحا النجاة، والإحسان يتضمن تمام التقوى وكمال الصبر.

الصلاح الدائم لا المؤقت:

القصة تؤكد أن الصلاح ليس مؤقتًا، بل يجب الصبر على الطاعة والاستمرار فيها: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

أدب مع الله: رؤية المنن في الابتلاء:

يوسف لم يذكر ابتلاءاته، بل ركز على المنن، أدبًا مع الله، لأن الابتلاء نفسه كان وسيلة للمنح والخير. هذا يعكس أدب العظماء الذين يرون لطف الله الخفي في كل شيء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾.

٤ "لا تثريب عليكم اليوم": عظمة العفو والمروءة

اعتراف الإخوة بالخطأ:

أخيرًا اعترف إخوة يوسف بالحقيقة: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾. أدركوا أن الفضل من الله وينالله كل من اتقى وصبر، لا بالنسب أو المنصب.

عفو يوسف الكامل: "لا تثريب عليكم اليوم":

بادر يوسف بعظمة نفسه وسعة صدره بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. لم يعاتب، لم يعيّر، ولم يذكر الماضي، بل أعلن الصفح الكامل.

دروس من أدب الاعتذار والعفو:

الاعتراف بالخطأ خير من عدمه، ولا يُنتزع الاعتذار بالإذلال. العفو الحقيقي يعني المسح لا التأجيل. من أراد أن يغفر الله له، فليتعلم أن يسامح الناس كما يحب أن يعامل.

نسبة الفعل للشيطان: مروءة العظماء:

يوسف قال لاحقًا: "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ."، فنسب الفعل للشيطان وفاءً بوعده ألا يذكرهم بما فعلوا. هذا هو الصفح الجميل.

أثر العفو في حياة الصحابة:

قصة أبي سفيان بن الحارث مع النبي ﷺ، وكيف أن كلمة "لا تثريب عليكم اليوم" كانت سبب محبة النبي له بعد سنوات من العداوة، دليل على عظمة هذا الخلق.

٥ القميـــص: من رمز الحزن إلى رمز الفرح والشفـــاء

تحول القميص:

كان أول قميص غارقًا في الدم والألم، فجعل يوسف الثاني يحمل العطر والفرج والشفاء: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أراد يوسف أن يمحو القميص الأول بقميص آخر، وأن يكون وسيلة لشفاء قلب يعقوب.

اليقين بالشفاء:

قال يوسف: "يَأْتِ بَصِيرًا" بثقة ويقين، وكأنه وحي من الله، لتطييب قلب يعقوب، مما يدل على أن ما أحزنك يومًا قد يفرحك غدًا.

النعيم لا يكتمل إلا بالأهل:

طلب يوسف إحضار جميع العائلة: "وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ".
النعيم يكتمل بحضور من نحب، فلا سعادة بدون مشاركة الأهل.
فلنجعل من أهلنا سببًا للفرح لا للشقاق.